أن نكون معاً

امتياز دياب

ما أكتبه ليس رواية، أو قصة قصيرة، إنه ريبورتاج عن شخصيات حقيقية، في بلد حقيقي، يقع في دولة حقيقية، تدور أحداث التحقيق في بلدة فلسطينية، حاول سكانها أن يعيشوا حياة عادية في ظل ظروف غير عادية، حاولوا أن يتشبثوا بآدميتهم، أن يرفعوا قاماتهم، فوجدوا رؤوسهم في الرمل، حاولوا أن يكونوا امتداداً لإخوان أحبوا البلدة يوم الفراق، فأنكروا عليهم ذلك الحب. كل ما تبقى لهم الآن هو أن يثبتوا أنهم ما زالوا قادرين على الحياة، وذلك من خلال ممارسة ما تبقى في تلك الحياة، وما تيسر.

١

. . . كانت تجلس تحت شجرة توت كثيفة الأوراق، تمايلت الأغصان فوق شعرها الأشقر، تارة بعنف، وتارة أخرى بانسياب رقيق. تفتح عينيها كلما اشتدت حدة الريح، فترى من خلال أهدابها المثقلة بالنعاس ـــ إثر وجبة شواء، وما أعقبها من الإسراف في أكل العنب ـــ حلقة من الرجال وبعض النسوة الغارقين في حديث هامس، يأكلون البذور ثم يبصقون القشور في اتجاهات متفرقة. فإذا بالريح تقذفهم بها، ليعلق بعضها في الشعر، والباقي يرقد وسط حلقة مقاعدهم المتلاصقة.

امتياز دياب، كاتبة وصحافية فلسطينية – جنيف

وإثر هبة ريح قوية، نظفت الرؤوس من قشور البذور العالقة في الشعر، سقطت بعض القشور على وجهها المستسلم للنوم، ففتحت عينيها مرة أخرى، ورأت أبا محمد ملوّحاً بذراعه نحو الغرب قائلاً:

«هذه الريح سارت بمحاذاة جبال الناصرة، وجبال الكرمل حتى حدود بيسان، ومرج ابن عامر، الممتد على أطراف هذه الجبال، فجاء الهواء لطيفاً، إذ يتحصن في رواق محمي. وهنا في هذا المكان بالذات، تقع الحدود الشمالية للمرج».

أرخى أبو محمد جفنيه وغرق في الصمت، تاركاً جسده المترهل في مقعده. ورغم محاولة البعض افتعال أحاديث جانبية، إلا أنها سرعان ما ذوت أمام الصمت. وقد شعر جميع الحاضرين بثقل الانتظار، خلال الدقائق القليلة الباقية على وداع محمد الابن البكر، الذي قرر العودة إلى لندن للبحث عن عمل لإعالة الأسرة. ولذلك، ترك مكتب المحاماة الذي افتتحه في القدس منذ عقد من الزمن. وبعد أن ساءت الظروف الاقتصادية في الأعوام الأخيرة، لم يعد بإمكان المكتب أن يستوعب ثلاثَة من أشقائه كانوا قد درسوا المحاماة. فقرر الرحيل بحثاً عن طرق أخرى لكسب العيش، أو ربما ربط مكتب القدس بشركات عالمية...

عندما فتحت عينيها مرة أخرى، رأت أفرام الشريك السابق والصديق الحميم لمحمد يقدم له ساعة حائط للذكرى، وسمعته يقول:

«هذه الساعة لتذكيرك بساعة العودة، أنا أعرفك ستنسى الوقت تماماً، وستبتلعك لندن دون أن أكون إلى جانبك لتذكيرك بموعد العودة».

حاولوا الضحك بمرح، لكن ألم الفراق عاد ليلقي بظلاله على الحاضرين. ووقف الجميع لحسم لحظات الوداع كي لا يجهش أحدهم بالبكاء... كان أفرام أكثرهم شجاعة عندما نهض، وصافح محمد بحرارة مودعاً إياه. ونهض وراءه سائقه الذي أسرع ليدير محرك السيارة، وكانت هذه بمثابة إشارة للجميع بأن ينفض المجلس. فودعوا أبا محمد أولاً واعدين إياه بالزيارة في غياب محمد. تماسك أبو محمد وتظاهر بتصديق ذلك، ولكنه كان يعلم علم اليقين أن هذا اللقاء لن يتكرر بغياب محمد عن البيت...

وقفت هي، أيضا، وصافحت أبا محمد، ورددت ذات الوعود بالزيارة، ثم تحولت إلى محمد

وقبّلته قائلة: «صداقتي معك هي أحلى ذكرياتي».

ثم تحولت إلى زوجته واحتضنتها بقوة وقالت «سنلتقي قريباً».

تتابع موكب السيارات المغادرة لقرى المرج، الذي استلقى تاركاً الهواء يمرح على ترابه، عابثاً بأشجاره. . . . ثم غرقت في التفكير في جملة خطرت لها، وقد سمعتها من عجوز من قرية الدامون (كانت أراضينا تصل حتى البحر، وكنّا نملك موجتين في البحر).

٢

. . . كانت القرية تضج بدوي المفرقعات الملونة في وضح النهار، ومع اقترابها من البيت، تعالت أصوات الغناء، واختلطت بدوي الرصاص، الذي اهتز له زجاج النوافذ في البيت المشيّد منذ نصف قرن. . . جلست إلى جانب الحاجّة، التي تمتمت غاضبة، إذ تنبعث من دخان المفرقعات رائحة خانقة، وقد دوّى صوتها حتى صمّ الآذان، وتعالى هديرها معلناً عن اقتراب خروج العروس من بيت والدها. وقد أراد لها هذا الأخير عرساً يذكره القاصي والداني، ويتحدث الناس عن مئات الدولارات التي شُكَّت في حبال أحاطت بعنقها، وعن مفاتيح سيارة المرسيدس التي علقت على صدرها.

علا صوت أذان العصر الذي تزامن مع ظهور أطراف من فستان العروس، حيث اشتد دوي المفرقعات التي ذوت ألوانها بفعل ضوء الشمس. ولم يبق من المفرقعات سوى رائحتها الخانقة وصوتها المدوي، مما حدا بالنساء اللاتي سرن وراء العروس ـــ ليرافقنها حتى السيارة التي ازدانت بالورود. إلى وضع أصابعهن في آذانهن خشية أن يصيبها الصمم من زلزال المفرقعات، والرصاص.

وعندما سمعت الحاجّة صوت الأذان يعلو عليه صوت الرصاص، و المفرقعات، انتفضت غاضبة، ولم تتوان عن صب لعنتها على الساعة التي فتحت أبواب الرزق لمن لا يستحقه، قائلة:

«زمان، عندما كنا نسمع صوت الآذان كنا نتوقف عن مزاولة أعمالنا فلا تلهينا عن ذكر الله، إن هذا هو الكفر بعينه». . .

أما هي فلم تحرك ساكناً على غير عادتها، كل ما فعلته أنها وضعت كفيها على أذنيها تفادياً للضجيج، ولما رأتها زوجة الابن تفعل ذلك، انفجرت ضاحكة مستفسرة عن أسباب هذا الهدوء المفاجئ، فقالت لها: «تناولت الكثير من العنب». لم تخف زوجة الابن دهشتها وأضافت بمرح:

«علينا أن نطعمك العنب الليلة.. في البلد ما يزيد على العشرة أعراس، والموضة هذه الأيام مفرقعات ودي جي مع مكبرات الصوت، وفي كل يوم سبعة، أو عشرة أعراس».

نفضت الحاجّة سبحتها غاضبة وقالت:

«سقط الحياء عن الناس، القتلى بالنجف بالعشرات، وفي غزة، وفي نابلس، وهون غناء، ورقص، وأكل، ونقوط، اللي معه، واللّي معوش، كلُّه بِنَقِّط، بيحرموا أولادهم من المدارس، ومن النوم، كل هذا للأعراس». ثم التفتت ناحيتها...

كانت قد أغمضت عينيها.

«والله من حظنا إنو أكلتي عنب، بتذكري لما اتصلتي بالبوليس عشان يوقف أذان الفجر، والله هذا العنب نعمة من الله». زوجة الابن لا تصدق أذنيها وتطلب المزيد من التفاصيل، فتتطوع الحاجّة بالتفاصيل وتقول: «كانت بنتها صغيرة، وما كانت تتحمل ذبّانة تطير جنبها، وكانت البنت تخاف من صوت الأذان، تقوم مسكينة تبكي من الصّوت، فاتّصلت بالبوليس وقالت لهم ييجو يوقفوا مكبر الصوت، وحكت لهم عن حق المواطن، وعن مسؤوليتهم، وأن المكبرات مش موجودة بالدين، وانه في ساعات في كل بيت، وكل واحد معاه ساعه، وإذا أراد احد سماع الأذان بإمكانه الذهاب إلى الجامع ليسمع صوت الأذان هناك، لكن البوليس سألها عن موعد سفرها، وانُّه لازم تتحمل وتتعود، شو بدهم يقولولها ؟! والله، وهددتهم تشكيهم لأنُّه ما ساعدوها في ضمان حقوقها. "

تضحك زوجة الابن بأعلى صوتها غير مصدقة، «صحيح ؟، وآه.. شو قالوا لِك؟»...

فتحت عينيها وقالت: «سألوني عن موعد رحيلي من البلد».

تضحك زوجة الابن من جديد ثم تقول: «كلي عنب واهدئي، أنا والله خفت تقومي تصرخي على عرس بنت جيرانا، الله ستر».

٣

. . . كانت السيدة الوحيدة بين ثلاثين رجلاً في أعمار مختلفة، شخص الجميع بأبصارهم نحو مستشار رئيس الحكومة لشؤون العرب، أوري، وإلى شخص آخر يدعى مكسيم. جلس أوري أمام طاولة من البلاستيك الأبيض، وكان مرتدياً قميصاً أزرق بلون السماء، توسطت رأسه قبعة صغيرة باللونين الأزرق والأبيض. وجلس إلى جانبه مكسيم الذي لبس هو الآخر قميصاً أزرق، وقبعة صغيرة بحجم الكف باللونين الأبيض والأزرق. دار الهمس بين الرجال عن اللغة التي يجب أن يحدثوهم بها. . .

همست لهم بأن يتحدثوا باللغة العربية، بما أن أوري يتقنها، واقترح محمد أن تكون اللغة عربية، ولكن أوري اقترح العبرية بحجة أن مكسيم لا يتقن العربية، وهكذا كان. فتحدث محمد الذي بدا وكأنه الموكل بالتحدث باسمهم وقال بعبرية صحيحة:

"أنا أتحدث باسم الجماهير، وهذا هو لقاؤنا الأول مع مسؤول من الحكومة الإسرائيلية، نحن لا نشكل حزباً، وإنما هي حركة تهتم فقط بأمور القرية الداخلية، أعضاء حركتنا من جميع الأحزاب وجميع العائلات. وكما تعلم جميع سكان القرية يعتنقون الدين الإسلامي، نحن لا نرغب في الصراع مع عائلاتنا، أو شيوخنا، أو مجتمعنا، ولكن آن لهم أن يسلموا قيادة الأمور للشباب.

هذه الحركة ولدت مع انتخابات البلدية الماضية، وتكونت للمطالبة باحتياجات القرية، وهذا لا يتعارض مع تواجد الرئيس الجديد، ولكن لتذكيره بأن لنا عيناً ساهرة، ولن نسمح بتجاوزات تمت في الماضي، أو بتجاوز احتياجات القرية، (نظر محمد في وجوه الرجال فوجدهم صامتين فاسترسل في الحديث) نسبة البطالة في القرية بين الرجال فقط ٢٦٪، وهذا الرقم الرسمي، يذهبون إلى حيفا للتسجيل مرة في الأسبوع، الرجل العاطل عن العمل وزوجته. على أن يتم التسجيل لكل منهما على انفراد، أي أن دفع أجرة المواصلات يعني في هذه الحالة ٢٠٪ من المبلغ الزهيد الذي يحصلان عليه في الشهر.

القرية تعاني، وأنا أصر على أن أسميها قرية وليست مدينة، إذ لا توجد لديها مواصفات المدينة إلاّ من ناحية عدد السكان. هناك ٥٠٠ طالب ينهون المرحلة الثانوية في كل عام، وهذا يعني

انضمامهم إلى جيش العاطلين عن العمل، ولكن دون مساعدة اجتماعية، ولا توجد حاجة لشرح مدى العبء المادي أو الاجتماعي الملقى على عاتق العائلات. ولا يذهب منهم إلى الجامعات سوى الأغنياء، لأن السنة الدراسية الجامعية تكلف الطالب ٥٠ ألف شاقل، يعني أنا شخصياً لا أقبض نصف هذا المبلغ، ولديّ عائلة مكونة من خمسة أفراد».

أوري يسأل فجأة:

«لماذا ٥٠ ألف شاقل؟».

محمد يتوقف، ثم يسترسل في كلامه متجاهلاً الإجابة: «تتحدثون في إسرائيل عن حقوق المواطن، أين هي الحقوق؟ هناك مشكلة الأرض، أو مسطح القرية، تحولت القرية إلى علبة سردين، لا يوجد مكان للبناء للأزواج الشابة! أين سيذهب هؤلاء؟ إلى السماء؟».

مكسيم يقول، ولا نعرف إذا كان ما قاله نوعا من الدعابة أم يقصد شيئا آخر: «هذا الذي يحدث الآن».

لكن كانت هذه الملاحظة بمثابة إشارة من أوري لإنهاء لائحة المطالب، إذ غيّر جلسته ووضع رسغيه على الطاولة وأمسك بقلمه، ورفعه بيده اليمنى، قبل أن يقول: «شكراً لباسم على ترتيب هذه الزيارة، أنا سعيد لأننا نتحدث بقلب مفتوح، وعلى هذه الطاولة وضعنا الآلام، أنا أيضاً مواطن قلق في دولة بنيت أو تأسست منذ ٥٦ عاماً، وأنا نفسي أبلغ من العمر ستة وخمسين عاما، عملت ١٨ عاماً في الإدارة المدنية، وسكنت في المجتمع الفلسطيني، وكنت أعمل في رام الله، وأسكن في القدس، ولم يكن يمر يوم واحد من دون الجلوس مع الجماعة، وتدخين الشيشة قبل العودة إلى البيت.

الوضع الحالي صعب، وهذا مؤسف، ومن ينظر إلى الخلف يرى أن ذلك الزمن كان أفضل. وكنت أعمل في بير المكسور حيث قضيت وقتاً طيباً. ثم عملت في الكنيست، ومنذ أحداث أكتوبر في عام ألفين والعلاقات في تراجع. لدينا مشاكل مع القيادة العربية، وأعضاء الكنيست العرب في سباق في ما بينهم ليثبت كل منهم أنه الأكثر اختلافاً مع الدولة، ومع الحكومة. وإذا كان هذا هو موقفهم، رئيس الحكومة لا يريد أن يسمعهم. من يدّعي أنه مواطن في إسرائيل يجب أن يكون مواطناً في كل شيء، وغير مقبول أن تكون مواطنا هنا وليس هناك! ما سمعته هنا هو بمثابة شعاع ضوء، وهذا يعني أنكم قررتم أن تأخذوا زمام الأمور بأيديكم. ولكن للعلم فقط،

نحن قمنا باستفتاء ووجدنا أن المجموعة العربية أخذت أكثر من المجموعات الأخرى. قالوا لي إن هذه المعلومات ليست جزءاً من وظيفتك».

كان أوري يتحدث ناظراً في وجوه المبحلقين في وجهه، ثم تساءل:

«أين المشكلة؟ المشكلة أن لا أحد يقرأ عن الأعمال التي تقوم بها الحكومة، والمشكلة هي أنهم لا يريدون أن يدفعوا من أجل الديمقراطية، أن تقول إنك لا تريد العمل في السياسة خارج القرية، لكن السياسة هي لب الموضوع، وإذا لم تكن لديك قوة سياسية فلن تكون لديك القدرة على التغيير! لماذا وصلنا إلى هذا الوضع ؟ أين أخطأت دولة إسرائيل؟ أخطأت الدولة لأنها لم تعط شعور الانتماء للعرب في دولة إسرائيل. كما أنه علينا التعرف على تفكير الشعب اليهودي، لنأخذ مسألة البناء والأرض، لقد قمنا بجمع المعلومات عن هذا الموضوع، ووجدنا أن الأراضي التي يملكها المواطن العربي تبلغ ثلاثة أضعاف ما يملكه المواطن اليهودي».

عندما سمع مكسيم هذه الجملة حرك كتفيه إلى اليسار، ثم إلى اليمين، ببطء شديد وكأن هذه الحركة كانت إعلانا منه بأن لديه ما يقوله، ولكن عندما تكلّم بدا أكثر فتوّة من جسده المترهل الذي أتعبه الجلوس وقال: «مثال على ذلك، يسكن في رمات غان ١٢٠ ألف نسمة، ومن الناحية الأخرى يسكن الناصرة ٧٠ ألف نسمة، لكن مساحة الناصرة أكبر من مساحة رمات غان، البناء في رمات غان أكثر تنظيماً منه في الناصرة. صحيح في الوسط اليهودي حقوق المواطن مضمونة لكن ماذا عن الواجبات؟. العلاقة بين الشعبين مبنية على أساس الحذر والعداء. يجب العمل على تقريب وجهات النظر. هناك أربع مجموعات في الوسط العربي، الأولى تتعايش مع الوضع، والثانية تعيش مع الوضع كأمر مفروض عليها، والثالثة معادية للدولة، والرابعة تريد الالتفاف على الدولة».

بدت عليه علامات الزهو والسرور إثر هذا التلخيص الفذ. . . وجّه أنظاره نحوها، وجدها غارقة في تسجيل ما يقال، ورغم توقفه عن الكلام، لم ترفع رأسها نحوه بل توقفت عن الكتابة وبقيت مطرقة تدقق النظر في أوراقها، بدت علامة الحيرة في خطوط فمه المنحدرة نحو ذقنه. وعندما عاد للحديث حافظت نبرته على رتابتها:

«لبناء مجتمع جديد يجب أن تكون هناك خدمة وطنية، وفتح باب الخدمة العسكرية أمام العرب. يجب أن يدافع عن الدولة العرب واليهود، وعلى كل مؤسسة عربية تستلم ميزانية من

الدولة، أن ترفع علم الدولة. وعلى كل مواطن في الدولة يحمل الهوية الإسرائيلية أن يكون أميناً للدولة، لأن هذه الأمور هي التي تعطي الشعور بالانتماء. هذه الدولة لنا جميعاً دون استثناء وعلينا جميعاً العمل من أجلها، وهذه التربية يجب أن تطبق في المدارس وفي السلطات المحلية.

أعضاء الكنيست العرب لا يتحدثون إلا عن الفلسطينيين، ولا تهمهم احتياجات المواطن العربي في إسرائيل. آمل أن يزداد عددكم في البلد بحيث لا يمكن لوزير أن يتجاهل احتياجاتكم، وأن تهتموا بتفادي أخطاء الكبار، والتطرف الذي يزاوله أعضاء الكنيست من خلال حصر اهتمامهم في القضية الفلسطينية، ولم يعطوا للمواطن العربي أي شيء يذكر".

يعلو رنين هاتف أوري، ويقول لمحدثه أنه في اجتماع، ثم ينهي المكالمة، ويتحدث للحضور، وكأنه هو الذي كان يتحدث وليس مكسيم، إذ استمر بذات الفكرة وذات السياق، حتى أن الحاضرين أنفسهم لم ينتبهوا..

هي، وحدها، انتبهت إلى أن المتحدث تبدل، وضعت القلم من يدها وأصغت إلى أوري الذي قال:

«هذا اللقاء هو حزاراه بتشوفا (نسبة إلى العلمانيين الذين عادوا لتطبيق تعاليم الدين اليهودي)«وعندما تابع أطرقت رأسها نحو أوراقها، ورسمت دائرة كبيرة حول اسمه وتابعت تدوين ما يقول:

«أنا أقول إن مصدر الخوف، فعلاً، من الصغار لأنهم القوة الحقيقية. «قال ذلك ووضع يده على رسغه الأبيض المختلط ببقع النمش، تحسس ساعته الفضية: «اليوم دخلنا باباً مفتوحاً، علينا احترام الغير. وانعدام هذا الإيمان هو الذي خرب العلاقات بين اليهود والعرب".

يسأل محمد بصوتٍ مرتفع: »لماذا على ثلاثين واحد أن يتحدثوا بالعبرية من أجل شخص واحد؟". نظر أوري إلى الجميع وتابع: "إن اللغة هي المفتاح، على اليهود أن يتعلموا اللغة العربية". محمد يقاطع مرّة أخرى ويقول بصوت خالٍ من اللطف ولكن بهدوء:

"الأفلام على سبيل المثال تترجم إلى الروسية، وليس إلى العربية". مكسيم شعر بأن الحديث موجّه له فقال برتابة: «لا نتعلم اللغة في المدارس، هناك الكثير من المشاكل ويجب أن نضع هذا جانباً، الموضوع أن البلد لا يدخلها أحد بسبب الظروف، والعالم هو(البزنس) يجب أن تعملوا لكي تحولوا البلد إلى مركز تجاري. «تساءل علي الذي جلس متحفزاً منذ بداية اللقاء:

«كيف يمكن بناء ذلك دون أرض؟ " .

تجاهل مكسيم الملاحظة وقال : «في رمات غان بنوا مركزاً تجارياً مدخوله الشهري خمسة ملايين شاقل، في شفا عمرو المركز التجاري هناك يزوره الآلاف كل يوم، هنا لا يوجد شيء، لماذا؟ أنتم لستم بحاجة للمساعدة، يمكنكم الذهاب إلى أغنياء القرية وعليكم إقناعهم بأن يفتحوا العالم لكم، أنتم بحاجة لتسويق أنفسكم، أنتم بحاجة إلى صقل لأفكاركم، وبالأفكار هذه ستتقدمون» . دخل عددٌ من الشباب وبأيديهم أوعية الفواكه والحلوى وداروا بها على الحضور، تناول أوري ومكسيم بعضاً منها، وكان هذا إيذاناً بانتهاء اللقاء، فقال أوري : «أنا سأكون رسولكم لرئيس الحكومة، سجلوا أفكاركم واقتراحاتكم على ورقة ولنلتق بعد شهر وليكن اللقاء القادم عندي في البيت " . نهض أوري ومكسيم وصافحا الجميع . . .

وعندما وصلا إلى حيث تقف، حاولا ألا يطرحا عليها أي سؤال، بينما بدت الرغبة في عيونهما، وبدل ذلك قالا برزانة : «سيدتي كانت فرصة طيبة أن نتعرف عليك» . همهمت لهما بكلمات غير مسموعة وعادت للجلوس، وهمست لأحدهم أن يفتحوا الحوار للتقييم، وأمسكت بقلمها لتسجل عندما قال أحدهم من بعيد :

«تنشوف الصبي منصلي على النبي» .

ثم قال باسم :

«علينا بتشكيل لجنة تنسيق وتسجيل اقتراحاتنا ثم نذهب إليه إلى القدس» . يعلق آخر : «ليش لجنة خلينا نروح كلنا»، صهل بضحكة رنانة ثم أردف : «خليها مشاوي . . . » علي الذي كان منذ بداية اللقاء متوثباً للحديث، وفي كل مرة يطلبون منه ألا يقاطع الرجل، بدا وقد فرغ صبره حين قال : »فيه سؤال مهم يا جماعة طرحوا أوري يجب البت فيه، هل نحن نريد الاتجاه إلى سياسة خارجية، أم أننا سنلتزم فقط بالسياسة الداخلية؟ اليوم كل شخص بشتغل لمصلحته، من التجمع للجبهة، طيب وإحنا ؟ وين مصلحتنا؟ ومن ناحية ثانية سياسة الدولة إذا كانت معراخ، أو ليكود، أو متدينين هي سياسة واحدة، وأوري قالها لما سأل من أنتم؟ شو عندكم ؟ شو معناه سؤاله؟ سؤاله معناه : كم من الأصوات عندكم لحزبي؟ إحنا لّما منقول عندنا ثلاث آلاف صوت، هذول مش لحركة عهد الجماهير! هذول موزعين على جميع الأحزاب، بقول أوري إنّه أنا داعيكم عندي للقدس في البيت، ومعكم عرض، مش طلبات قال عرض، يعني جاي يشتري ومش

جاي يبيع . وإحنا دون سياسة خارجية معندناش اشي نبيعه، وسمّانا حزب، وقال لازم حزبكم تكون طلباته معقولة، يعني بدكاش تعادي إسرائيل . قبل عشرين سنة كانوا يوزعوا العرب على مساحات واسعة من الأرض، اليوم عكسوا السياسة صاروا ينشروا اليهود ويكوموا العرب كوام كوام، ليه؟ عشان ما نطالب بتوسيع مسطح القرية» . قال علي ذلك وانتبه أن المجلس انفض من غالبية الحضور، فسكت ونهض هو الآخر عندما سمع أنهم سيجتمعون في بيت ماجد ليحلوا مسألة خلاف مع الحارة الفوقة .

٤

. . . دخلت بيت الحاجّة، ووصلها صوت شخص يقول: «والتوتو مخرب بيتو، هذا كله للمظاهر وللتغطية على إفلاسه، وهذا يا ستي مديون مش أقل من مليون شيكل . «سألت بعد أن جلست على فراش مغطى ببساط من الصوف الأحمر . " مين المديون؟ " . أتاها صوت زوجة الابن مرحاً :

«بحكوا عن ابن جيرانّا انه مديون، وانه كل هذه المفرقعات اللّي فجرها كانت لتغطية إفلاسه، برأيك معقول؟ مش معقول؟ طيب والمرسيدس؟ والحفلة اللّي دفع عليها الآلاف؟ بقولوا كانت شاشة كبيرة تنقل وصول العروس لما نزلت من الليموزين، وبحكوا عن الوجبة اللي قدمها ما صار مثلها، نزّل القريدس، والسمك، والمشاوي، هذا غير الرقصات، وكان داعي ألف شخص! " .

يقاطعها شاب طويل القامة، ركن ظهره على مسند مزين بزهور سوداء، على أرضية زهرية : «آه واللّي مديون بمليون بيندان بأربع ملايين، المديون بالملايين ما بهزّو مرسيدس، وبعدين كل هالضجة عاملها عشان نحكي، شو بتقولي بخجلش، القصة بدُّو يغطي على ديونه، وبدُّو الناس تحكي عنُّو بدون ملل، وهذا إحنا عم نحكي، وهو مبسوط " . . .

علا صوت الزغاريد فعدَّلت من جلستها ونظرت متسائلة، فقالت لها الحاجّة «عرس ! شو يعني بدُّو يكون، هذا لو سمعتي المفرقعات قبل شوي كأنها فوق دارنا» . زوجة الابن تتبرع بالمعلومات مضيفة : »هذه البنت ساكنة مع الشاب من شهر بدون زواج، كانت مخطوبة، لكن صارت علاقة . . بتعرفي للآخر وقالت لأبوها، فقالها أبوها تطلع من الدار وتروح تسكن عندهم، بقولوا كانت ساكنة معاه في نفس الغرفة، عادي وزيادة، وما حدا فاهم ليش العرس ما دام ساكنين

مع بعض، آه. . وهيا هم فضيحة بجراس، وبقولوا البنت ولا هاممها، راحت عند الكوافير، وعملت كسوة، وطلّعت ذهب وبقولوا إنه أبو البنت جاي يحضر عرس بنته !».

صمتت قليلاً لترى ردة الفعل على القصة، ولما لم تجد سوى الرغبة في معرفة المزيد من المعلومات استطردت قائلة:

«طيب لما أبوها جاي يحضر ؟ ليه ما بتطلع من بيته؟ ما حدا عرف! هاي العائلة عندهم قصص من هذا النوع كثير، والناس بتنسى». عندما استمع الشاب للقصة التفت إلى الحاجة وقال لها: «شفت اليوم الصبح الحاجة كاملة وسألتها ليش بتزوركيش، قالت لي وأزورها ليه، شو بدي فيها». ضحكت الحاجة من أعماق قلبها في ضحكة لها هسيس، وحشرجة في صدرها، ثم انتهت بقهقهة قصيرة قطعتها بضرب كفيها، ثم أخذت نفساً متقطعاً وأصلحت من غطاء رأسها الأبيض، وغطت خصلات بيضاء مجعدة من شعرها، بعدما شدتها وراء أذنين صغيرتين، ثم قالت وهي منبسطة الوجه، لامعة العينين اللتين وشتا بجمال مضى:

«بالأمس بالمنام حلمت فيها بالمقبرة كانت تلف بين المقابر وكانت تقول يا بَيِّي يا بَيِّي هذه القبور غميقة غميقة أنا بدِّيش يقبروني هون. . . أنا بدي يقبروني في علبة ويحطوني على ظهر الحيط".

٥

. . . جلست مع محمد وشقيقه الكبير على مصطبة من الاسمنت أمام باب المطبخ. كانت الحاجَّة داخل المطبخ، تدور مع عكازها بين خزائن المطبخ تفتحها وتغلقها باحثة عن شيء، ولما يئست جرَّت نفسها حتى المصطبة، جلست دفعة واحدة، فاهتز الكرسي البلاستيكي، وكادت تنقلب، فهمّ ثلاثتهم للمساعدة، ولكنها حافظت على توازنها بضرب عكازها إلى الأمام فعادت، واستقام الكرسي، لعنت صناعة هذه الأيام، ثم أصغت للنقاش الدائر بينهم، كان الابن الكبير يقول: «يعني مستشار شارون بانتظار انضمامكم للِّيكود؟»

محمد يسأل مستنفراً: «ليش ننضم للِّيكود؟ إحنا عندنا مطالب» بدأ الكبير بهز ساقه اليمنى فاهتزت الطاولة التي اتكأ عليها بمرفقيه وقال: «انتم نزوة، حصلت نتيجة الانتخابات، والنزوة مثل الريح بتروح وبيجي غيرها». كثف محمد من تكشيرة عقدها بين حاجبيه وقال: «إحنا الأقوى، حلمنا حلم وبدنا نحققه، عنّا مبادئ غير موجودة سواء في حزب صغير، أو في حزب كبير،

نحن بديل للأحزاب والعائلات، قمنا بعقد ثلاث ندوات حضرها المئات. عنّا خمسمائة عضو مشترك، الدستور جاهز، و الهيكل التنظيمي فعّال، في كل حي ممثل لهم، والحي بغطّي أكثر من عائلة، وإحنا حركة مش حزب، وكل عضو حر في صوته للكنيست، لكن الالتزام المطلوب هو في الانتخابات المحلية" . ازدادت هزآت ساقه، وانضمت لها ساقه اليسرى، ثم حول عينيه احتقاراً، وسال لعابه، وتجمد على زوايا فمه، وعندما فتح فمه امتد اللعاب على زاويتي شفتيه، وبدا كستارة براقة. . .

و لمّا تفوه بالكلمات الأولى انتشر رذاذ لعابه فأصابها منه ما أوقفها عن الكتابة، لتمسح وجهها بظاهر يدها، ونظرت إلى عينه، التي دارت في محجرها وبرزت قليلاً، لم تخف من تعابير وجهه، ولم يرف لها جفن، وعادت وأرخت عينيها على أوراقها، وعادت للكتابة، وسمعته يقول:

"بدأتم اللعب بالنار، وأنا بحذر، راح تتساقطوا مثل أوراق الخريف. "

محمد: »ليه؟ ممنوع نتصل مع مسؤول من الحكومة؟"

«أنا بحذرك، هذا شغل جماعة الشباك، وهذه الخطوة راح تجيب حرب في الشارع، لحس الكنادر بوصلكوش للانتخابات القادمة، والله من بكرة حربكم، ممنوع تتصل مع الحكومة، هذا اسمه استعمال الناس مطيّة للوصول لأهدافكم الشخصية، وأنا. . أنا أخوي يصير عميل! ليه؟" .

محمد يرد ببرود: »انت بينك وبين السياسة مسافة طويلة، هذا اسمه تكتيك، إستراتيجية، وعهد الجماهير هي مؤسسة، حركة، مش لعبة. «يضرب الطاولة بيده ويزعق مولولاً: »أنت بتبيع أصوات لأي مشتري، إذا كان المشتري شاس، أو ليكود، عندك استعداد للبيع" . محمد يسأل متخلياً قليلاً عن بروده: «يعني انت بتمنع أصوات البلد تروح لشاس أو لليكود ؟«يزعق بنزق:

«أنا منعتها، أنا خط سياسي مستقل، وبحارب الأحزاب الصهيونية طول عمري، بدكم ترجعونا للخلف ثلاثين سنة، هذا تكتيك ؟ إستراتيجية؟"

محمد : "حركتنا تأسست لحل المشاكل في البلد، مشاكل الطلاب، بطالة، فقر، أرض، زواج، وإذا حصلنا على تمويل من الحكومة هذا خطأ وعمالة؟«

تعالت طلقات المفرقعات وانتشرت رائحة كبريت خانقة، نظرت الحاجّة إلى السماء وهزت رأسها استنكاراً ثم قالت: «الناس بترقص وبتحرق أموالها على الهبل وأنا أولادي بتصارعوا بين

بعض، ليه؟ ما فيكم تحكوا مع بعض بدون صوت؟ ليه قاتلين حالكم على الفاضي؟ شو طالعلنا؟ الكل بقول معيش مصاري، وهذه المصاري اللِّي بحرقوها من وين؟ كلُّه بحرق مصاري غير أولادي عاطلين، وحاملين هَم الغير! احملوا همكم، اللِّي ما بحمل همُّه الناس تستخف فيه، حقها الناس تستغل الفرصة وتتجوز على السَّكِتْ، بهذه الأوضاع في النجف، في غزة، عار والله عار الناس تحكي، وبكفيش عرس في البيت، لأ . . لازم يروحوا على القاعات، حتى المحجبات بمدُّوا بالأول! " . تصمت الحاجّة، ولا أحد يعلق على ما قالت، إلا أنهم تناولوا السجائر، ووضعوها بين شفاههم، ثم أشعلوها، ثم قال محمد: «من حق المواطن العربي في هذه الدولة الحصول على تمويل، أعضاء الكنيست لم يحصلوا على تمويل لأنهم لا يعرفون الطريق الصحيح لذلك، الناس بدها تعلِّم أولادها، بدل الكرامة والشرف.» يرد عليه كالصاعقة: «سألتك عن المقابل؟» محمد: «في سخنين أم المعارك، افتتحوا فرع لحزب الليكود، وجمعوا أربعمائة عضو، مين انت لتمنعهم؟ ليش تحاربنا إحنا حركة لا ننتمي لأي حزب، عندك انت ثلاث أعضاء في الكنيست شو قدموا للناس؟»

زحف المساء على المصطبة، وبدأ الليل يلف الحارة بضجيجها ومفرقعاتها، نظرت الحاجّة إلى بيت الجيران، وتساءلت هذا أسامة قاعد على العتمة مبارح ظلُّوا سهرانين لوجه الصبح، كان عندهم زوار، والمشاوي مشاوي، آه منين منين بجيبوا مصاري للرايح والجاي؟ عاد بقلولي كانت مرته تبكي بالدكان قال مديونين، طيب مديونين امسكي ايدِك يالله هالكانون مولع، الناس ما إلها رب تعبده، ولا تخاف منُّه " .

يسأل محمد: «لو كان هذا الاجتماع بحضور أعضاء الكنيست كان مقبول أكثر ؟». ما زال جسده يهتز مع اهتزاز ساقيه، باءت محاولاته لتهدئة نفسه بالفشل وبقي صوته عالياً حين قال: «أولاً: في عند شارون عشرين مستشار للشؤون العربية، ثانياً: أنت تجاوزت رئيس المجلس المحلي من خلال مشاركتك في هذا الاجتماع، وهذا الرئيس وصل لمنصبه جديد أعطيه فرصة، وثالثاً أعضاء الكنيست العرب ما فش عندهم ثقة في اليسار الإسرائيلي، ولما بطالبوا في توظيف موظفين عرب بوظفولهم من الطائفة الدرزية، شو بدك تقولهم هذول مش عرب، لأنهم بخدموا في الجيش؟ كل ما هنالك بستعملوا الكنيست منبر لإيصال كلمة لرفع الاضطهاد، شو في إيديهم؟ (ف ١٦). أنت بتقول بتقابل شخص مثل أوري بصفته مسؤول حكومي مش لأنه مسؤول في

حزب، ليه بدك تتخطى أعضاء الكنيست العرب؟ يعني انت شو عندك تبيعه غير ضميرك؟»
طأطأت الحاجّة رأسها وتصلبت ملامح وجهها . . .

أما هي فتوقفت عن الكتابة ورفعت رأسها، وزرعت نظراتها في اتجاه الحاجّة، شعرت باكفهرار الجو، كانت تعلم تماماً أن الانفجار قريب، كما فهمت تماماً أن الأخ الكبير سيترك البيت بلا رجعة، مما سيحزن الحاجّة التي لا تفهم أبداً أسباب القطيعة التي تشملها ــ رغم أنها ليست طرفاً فيها ــ وذلك بعد كل شجار، وفهمت أنها في الأيام القادمة ستستمع إلى تساؤلات تشكك في طريقة تربيتها للأولاد، ثم ستعزو الأسباب إلى حكمة الله عزّ وجل . . .

قطع عليها حبل أفكارها صوت محمد الذي تخلّى عن النبرة المحايدة التي حاول تبنيها منذ بداية النقاش : »ما أسهل عليك خلع رداء العميل على كل إنسان يختلف معك في الرأي! أنت تحكي عن الديمقراطية، وتعادي أي شخص يختلف معك في الرأي. أوّل مبادئ الديمقراطية الأساسية هو احترام الآخر باختلافاته، بلونه، بلغته، بدينه، بثقافته، وبرأيه السياسي، وإذا انتهك واحدمن هذه المبادئ ــ معنى هذا ــ أنه لا يحق لك التشدق بالديمقراطية. صوتي في الانتخابات شيء، والحوار شيء آخر. أنا أحترم رأيك السياسي لكن هذا لا يعني أن أتبناه. «قال محمد هذا، وانسحب بهدوء، وعندما رفعت رأسها كان قد خيم الصمت، وبدا مقعده فارغاً . . .

٦

سار الباص في شوارع القرية، موزعاً راكبيه على المحطات، كانت تقرأ أسماء الحوانيت ثم تسجل أسماء بعضها ــ القمة للديكور ــ جمالك ــ ملبوسات الرحمة للمحجبات ــ نزلت من الباص عند محطة البريد القديم. كان بانتظارها حمودة، مع سيارة كان يجلس فيها صديق له، ألقت تحية المساء وصعدت إلى السيارة، التي دارت حال صعودها، ودخل بالسيارة في أزقة القرية التي جلس أصحابها عند مداخل بيوتهم يحدقون بالمارّة . . . رغم أنها ضاقت بالعيون المبحلقة، إلا أنها ارتاحت للهدوء الذي لم تصادفه من قبل في هذا البلد، وتعجبت من العداء الذي يكنونه للصمت. انحدرت السيارة في طريق أفضى إلى حارة مركّبة من بيوت ارتفعت على عمدان رفيعة، أسكنوا بينها جحافل من الأغنام والبقر، انبعثت منها رائحة قوية، قالت ساهية : «استعاضوا هنا عن الضجيج بغثاء الأغنام ورائحة البقر" .

وقفت السيارة أمام بيت مبني من الحجر، عندما ترجلوا، كان صاحب البيت في أعلى السلم،

وصلت سيارة ثانية، ترجل منها رجال تعرفت على بعضهم في اللقاء مع أوري. ولجوا صالوناً فسيحاً، توسطت سقفه ثريا هائلة من الزجاج مزدحمة باللمبات الكهربائية، نشرت ضوءها على كنبات وثيرة اصطفت بحذاء الجدران، رغم السذاجة في ترتيب الكنبات، إلا أن ألوانها كانت بديعة التنسيق، ما إن جلس الرجال حتى بدأت الهواتف بالرنين، ثلاثة منهم تحدثوا بهمس وشى بجدية اللقاء. دخل شاب مع صينية امتلأت بكؤوس شراب أخضر، وقف أمام الجالسين الذين تناول الواحد منهم كأسه، رشفوا الشراب بهدوء غريب، ثم وضعوا كؤوسهم على طاولات صغيرة انتشرت أمام مقاعدهم. همس صاحب البيت بالترحيب الحار. ولكن الصمت عاد ليسود بعد كل محاولة من أحدهم، تناهت للآذان أصوات نسائية متقطعة، تزامنت مع خطوات متسارعة، أعقبها ضجيج قصير لأواني المطبخ.

وصلت مجموعة أخرى من الرجال، سبقتها كلمات تؤذن لهم بالدخول «يا ساتر.. يا.. الله». دلف خمسة رجال في كامل قيافتهم، كان في مقدمتهم رجل بذقن قصيرة، وبدا واضحاً خضوعها للكثير من العناية والتهذيب. بدت على القسمات جدّية شديدة، ولكن رغم تلك الجدية، لم يقفلوا هواتفهم التي انبرت إلى الرنين دون توقف، وعند كل رنين لهاتف، يبدو واضحاً أن المتحدث على الخط غير مرغوب فيه، ومع ذلك استمرت هذه المكالمات بمقاطعة علي الذي حاول أكثر من مرّة افتتاح الحديث. وأخيراً قال:

«يا جماعة إحنا تفاجئنا بِدَخْلِتْكُم على عُرْسْنَا، وكانت خطوة مْوَفَّقَة، يا إخوان العمل الِّلي عم مِنْقوم فيه هو الأسلم للجميع، انتم بِتْسَكْتوا اللِّي عِندكم، وإحنا مِنْسَكِّتْ اللِّي عِنَّا. وإن شاء الله نسدها بالمثل، صحيح في ناس بدهاش الصلح منهون، عندنا، ومن هناك، من عندكم، واللِّي بدُّوش الصلح ذنبوا على جنبوا، هذه القعدة للتَّخطيط لمصالحة الطرفين، صار عندكم جرحى وصار عنَّا جرحى، لكن الجراح بتندمل، وإحنا في النهاية أهل، بناتكم متزوجة أولادنا، وبناتنا متزوجة أولادكم، يعني الدم اختلط».

سعل شخص آخر ليأخذ الإذن بالحديث، ويبدو أنه من طرف المتحدث الأول، قال بذات الأسلوب من جهة، ووزن الكلمات قبل التفوه بها: «أنا أقترح عليكم جمع الشباب، خصوصاً الشباب اللّي قاموا بالمناوشات، نحكي معهم، وممكن يكون البوليس موجود، لمنع أي اشتباك، في هذا اللقاء منعطي الحق لكل شخص بإعطاء رأيه، كيف الاشتباك صار.... الخ ونقترح عليهم

بحضور عرس عندكم مثل ما حضرتم انتم، ونعيد المودة والمحبة بين الطرفين». استمع الرجل الملتحي بذقن مشذبة باهتمام شديد، وكأن هاتفه شعر بالأمر الجلل، فتوقف عن الرنين. . . .

قال في نبرة غريبة في هدوئها، بالمقارنة بما سمعته منذ أن وطأت أقدامها أرض البلد: »صلُّوا على النبي يا جماعة، لما انطلقنا في هذا المشروع لم نعد طرفين، أصبحنا طرفاً واحداً، ونزلنا على موضوع صعب، بتقوم فيه الرجال، مش النسوان، ليه قمنا بيه؟ لأن أصلنا بيأمُرنا. بالنسبة للبوليس كفّى ووفّى وبدناش إياه يتدخل، بالنسبة لتنظيم لقاء بين الشباب، انا قلت لشبابنا إنه في صلحة ماشية، أعطونا يومين لأجل إعلام اللي ما دري بالصلحة، وبها اليومين إحنا، أي لجنتنا ولجنتكم، منتمشى مع بعض في شوارع البلد، ليشوفوا الناس انه القلوب عم تتصافى، إحنا اليوم وصلنا لأكثر من نصف الطريق. «قال شاب يدعى كامل بصوت عال ورفيع يتناقض تماما مع حجمه العظيم: «ياسر عرفات قال سلام الشجعان، والسلام بدُّو شجاعة أكثر من الحرب" . . . قال حمودي ـــالذي انشغل عن الحديث – بالكلام هامساً في أذنها عن هوية المتحدث: «عشرة من هون وعشرة من هون، بكفي للقاء أول بين الشباب، لأنه لازم يكون عنا سيطرة». دخل ثلاثة شبان حملوا بين أياديهم الفواكه، والبوظة، ومشروبات غازية ملونه، بدأ علي بأكل البوظة دون دعوة، ودون أن ينتظر الآخرين، وعلا صوت الملاعق التي ارتفعت لابتلاع البوظة، وقد لاقت استحساناً منقطع النظير، تلمظ علي قبل أن يقول:

«الشباب العامل ما في خوف منهم، لأنهم مشغولين، وخوفنا هنا، هو من العاطلين، لأنه هذول أجت لهم الانتخابات وخلافاتها من السماء، لأنه ما فيش شغل، أنا بقول انه يكون اللقاء يوم الجمعة، لأنه الجمعة مباركة».

يتهيأ الرجل الملتحي بذقن قصيرة قبل أن يقول: «خير البر عاجله، لكن حتى اللقاء، أنا داعي الحاضرين على الفطور، وخلّي اللقاء يكون في مكان محايد«كامل يقول: «يوم الجمعة عنا عرس خليها ليوم السبت، وهيك عنا وقت أكثر، في أثنائه منطلع إحنا منتغدى هون وهناك خلي الناس تشوفنا مع بعض، لو أكلنا ساندوتش شوارما.» يضحك البعض ويقول حمودي: «لو أكلنا غير الشوارما بنفع؟» ينضم الآخرون للضحك ويقفوا وقفة واحدة مودعين صاحب البيت. . .

٧

كان الليل قد أطبق بظلامه الكثيف، عندما عادت برفقة حمودي إلى بيت الحاجّة، كانت الحاجّة تصلي وهي جالسة، بسبب كسر قديم في قدمها اليمنى، أما قدمها اليسرى فأنهكها الحمل الذي قامت به على مدار نصف قرن، دون علاج شافٍ. . .

جلست تراقب الحاجة وهي تصلي، ثم نقلت نظرها إلى آخر الشارع، الذي أغلق تماماً أمام السيارات إحياءً لعرس. وتراكمت السيارات التي جهلت ذلك القرار، وحاولت العودة لكن منعها من ذلك، وصول سيارات أخرى، فتعالت أبواق السيارات، ولكن أصحاب العرس لم يبالوا بذلك واستمرت الأهازيج مصاحبة لأغاني نانسي عجرم وعمرو دياب. انتهت الحاجّة من الصلاة، وألقت التحية، وسألت حمودة عن اجتماع الصلحة، أغلق حمودة النوافذ قبل أن يقول: «الطرفين بِدْهُم الصلح، لأنه الناس تعبت، يعني هناك أشخاص بدهم يزوروا بناتهم، لطالب اللّي بدو يروح على الجامعة، بظلوا أهلو قلقانين عليه تيرجع، والشباب اللّي بشتغلوا بدهم يوصلوا على أماكن أشغالهم، ومن ناحية ثانية الصلح الرسمي تم، أجت وجهاء البلاد كلها، وأعضاء الكنيست أجو، وبعدين البوليس قالهم بشكل واضح اعملوا صلحة أفضل، ذاك اليوم أجا البوليس لمّ سبع جرحى، المرّة الجاي بخليكم تقتلوا بعضكم، وبعدها باجي بلمّ قتلاكم. وحذرهم البوليس من اشتباك في يوم السبت لأنه هذا يوم عطلة، فهذا التهديد، مع المخاوف اللّي قلتها، راح يعجل في الصلحة، وبالنسبة لأهالي الحارة الفوقة، الوضع أصعب لأنه أولادهم في السجن، أو مبعدين، مين ظل بدُّو الحرب ؟ الشباب العاطلة عن العمل، هذول راح يزعلو من الصلح لأنه شعر الواحد منهم بأهميته، على أساس هذه أول مرة فيها عنده دور يلعبه.

قالت الحاجّة: «والله ما أنا عارفة، ليه الدنيا بتغلي؟ الناس بتغلي، حتى لما بقول الواحد كلمة مرحبا كأنه بقول شتيمة، بزعقوا بكلمة الصباح! شو هذا؟ ومن ناحية ثانية، عراس هون، عراس هناك، وفراقيع، طيب هذول بسكروا الشوارع على العالم اللي بدها تمرق؟ وكيف إلها نفس هذه العالم توكل؟ بقولو لك هذا جارنا، بحفلة بنته، الأكل اللي حاطّو شيء ما صار بعرس».

وصلت زوجة الابن مع صديقتها، وشاركت في الحديث، قبل أن تجلس حين قالت: «بقولوا انه الأكل كثير آه، بس مش طَيِّبْ». ثم أكدت الصديقة على قولها: «كانت الوجبة متنوعة بشكل غريب، لكن كله عليه حامض، وبعدين كله كان خطابات بشكر فلان وبشكر علان، وكان

صحابه اليهود كثار، يمكن بوصل عددهم مائة وخمسين، وكان أجانب، وشكرهم بالعبري وشكر بالانجليزي، يعني باختصار، كان ساعة ونص خطابات، وبعدين مرقصتش الناس أو الأهل، كان جايب رقّاصات، وفرقتين موسيقى، وقتلونا بريحة المفرقعات، اشي غريب المفرقعات اللي حرقوها، يمكن كلفت المفرقعات فوق الثلاثين ألف شيكل، وكل هذا الصرف والناس ما انبصطت، وبعدين أهل العريس جابوا الحنة، وظلوا واقفين على جنب زي الشحادين» . . .

كانت تستمع باهتمام شديد إلى التفاصيل التي قالوها، وسألت عن كلفة العرس. فأجاب حمودي: «لعرس صغير أو وسط، بدِّك تحسبي خمسمائة كغم لحمة، صنوبر للرز بدك تحسبي ألفين دولار، طبعاً عندك الكوافير مع الفسطان ألف دولار، المصور، الفرقة الموسيقية كمان ألف، المفرقعات، حسب، لكن بتراوح الصرف بين ألف إلى ألفين دولار، هذ كله ليلة العرس، تنسيش انه في غداء ليوم فرم اللحمة، وغدء ليوم جلي الصحون، وتحضيرها قبل العرس، وعشاء الحناء، (والدي جي) اللّي بيطنطن لك على مدار ثلاثة أيام. بيقضوا العمر يسدوُّا بتكاليف العرس».

تتدخل زوجة الإبن وتقول:

«آه بس تنساش انه في نقوط، في ناس بتسد مصاريف العرس من النقوط، وفي ناس بزيد النقوط عن المصاريف، أحياناً بطلعوا خالصين، لا خسران ولا ربحان". تؤمن على قولها صديقتها: «أصلاً هم بدعوا كثير ليه؟ لأنه بكونوا مسلْفين ومنقطين عشان لما ييجي موعد أعراس أولادهم يستدُّوا، زي ما تقول هي عملياً مثل البنك، بس بدل ما البنك يدينك هم بدينوا البنك، حتى أحسن من البنك لأنه البنك بدينش حدا، لأنه الناس ما عندهاش ضمان، ولا واحد عندو، يعني بتلاقي كم واحد حالتهم فوق في كل البلد، بس الباقي عايشين كل يوم بيومه، المشكلة الكبيرة مش هاي، المشكلة انو التنقيط بيجي مع بعضه، لأنه موسم الأعراس بالصيف، يعني إحنا عائلتنا كان عندهم ستة أعراس، غير الأصحاب. فهون الخازوق، أول شيء بدك فسطان، أو اثنين، لكل عرس، وإذا كان العرس لأخ، أو ابن عم، النقوط بيجي يقص الظهر، يعني إحنا وأنا بحكي عن زوجي، صار منقط هذا الشهر ستة عشر ألف شيكل، وبعد علينا ثلاث عراس، يعني الليلة العرس بخصناش كثير، بس حطيت أنا وزوجي خمسمائة شيكل، وشاعرين انو مقصرين لأنه الوجبة لحالها بتكلف ميتين شيكل".

كانت الحاجّة تنصت بانتباه شديد للأخبار على «الجزيرة"، وتضرب كفيها مولولة بهمس، ثم

تلتفت نحوها وتقول: «كيفك انه بقعدوا بالساعات يحكوا كيف بيعملوا أكل، وبعدين بالساعات بحكوا عن شو أكلوا، هذه البلد كلها ما في عندها غير الأكل واللبس، ولا مرة شفت واحد سأل شو صار بالدنيا، هاي بقولوا على التلفزيون انه محاصرين الصدر بالنجف، صار لهم كم يوم؟ ولا حدا سائل عنه، ليش هم اليهود بعرفوش ؟ بعرفوهم، قاعدين لبطونهم، قاعدين لأكل المحاشي والكبة واللّحمة، واليهود قاعدين يعمروا في بلدهم، ويقتلوا بها الفلسطينية، والله والله ما الهم دين يعبدوه، طيب وبتحجبوا لليه؟ موضة ؟ والله كأنها موضة! طيب كيف في منهن بتحجبوا وبصلُّوش؟ وبحكوا على العالم، بتشوفيهم بحكوا عن هذا عمل، وهذا سوّى، وهذا راح، كيف بعرفوا؟ أنا بقولك فاضيين الأشغال، وخصوصاً النسوان، أولادهم في الشارع يا ولدي، وهنّ قاعدات للدواوين، واللي بتشتغل منهن جوزها قاعد، وبيستلم معاشها، حتى معلمات المدارس فيهن بروح معاشها على حساب زوجها. أنا بقول هذه هي جهنم، الحرامي فوق، والمسكين بظل مسكين، والله ما هي رايحة إلا على الفلسطينيين بالضفة وغزة، كله رجع على بلاده إلا همّ" .

حمودة ينظر إلى وجه الحاجّة الحزين ويقول لها بنزق: «انت بتسمي هذي عيشة؟ إحنا عيشتنا مش عيشة، إحنا عيشتنا من قلة الموت، أقلك هذه حلاوة الروح، وبعدين الفلسطينية في الضفة وغزة بِبَيْنوش عنّا، إذا زاروا حدا من هون، بزوروا البشاوات، لا بزوروني ولا بزوروكي، وأنا بحكيش عن الناس اللّي مثلنا، أنا بحكي عن هذول اللّي بِهبْروا بهذا الشعب، كل واحد منهم هَبَرْلو هَبْرَة، بصير فاضي الأشغال للتنظير في الوطنية، إذا إحنا هون جزء من شعبهم ؟ خليهم ييجوا لعنده، الشعب مش أعضاء الكنيست، الشعب أنا وانت، طيب ما هم شافوا انو خسروا ثلاثة أعضاء في مرة واحدة، ما كانت رسالة لهذول المنظِّرين انه في شيء غلط؟ إذا لأ، والرسالة ما وصلت، معناها انه كمان هم مثلنا مش مطلعين على الأخبار. أو إنهم قرأوا على روحنا الفاتحة، وإذا هذا صحيح ؟ معناه إنهم في المكان الخطأ. هذه مش قيادة، القيادة الحقَّة، هي اللِّي بتعيش مع شعبها. إحنا، يا حاجّة، ناس عم بتعيش على الكفاف، طيب ما انت شايفة انه الناس بتخلف أولاد عشان يكبر التأمين، وإسرائيل منعت اللّي عنده أولاد اثنين فقط من الحق في التأمين، فصارت الناس تعمل خمسة أولاد !طيب شو ؟ تقوليلهم متعملوش أولاد لأنكم فقراء؟ ولاحظي أنه دون اتفاق بين الناس وسعت العيلة، لأنه يظلوا على أولاد اثنين، مفش قرش واحد بفوت على البيت،

إذا في خمسة، في أكم قرش يدخل. الناس مش طمع في التأمين، الموضوع حياة أو موت، ما هو هذا هو الحل الوحيد قدامها، شارك الشباب في بداية الانتفاضة، شو صار؟ أجت الحكومة واستباحت دمهم. مين وقف معاهم ؟ ولا حدا، ليه؟ لأنه هذه إسرائيل، والعالم معترف فيها، بما في ذلك العالم العربي، وإحنا يعني اللي بدي أقلك إياّه انه إحنا موجودين، ومنحاول نعيش ومنخلف أولاد، وهذه أسلم طريقة للتضامن وبعدين شيء معروف انو الجوعان مش راح يقعد يقرأ كتاب! الجوعان بدو سوبر ستار يحلم فيه. وهذا هو اللّي منعملوا، زعلانة ليه؟

صديقة زوجة الابن تسعل وتقول:

«هذا إحنا مناضل وإحنا مش عارفين. «تغرق في الضحك ثم تتابع: »بدي أرجع في الحديث بالنسبة لحديث الحاجّة عن معلمات المدرسة. هم صحيح معلمات لكن الرجال بردّوش عليهن، يعني إذا الواحدة حاولت، بتسمعي صراخ الرجال لآخر الحارة، فهي بتسكت من البهدلة، هون عنّا إحنا ما في جدال بين الزوجين، لأنه ايده طايلة، وإذا ما سكتت، أبوها بوقف ضدها، أمها بتوقف ضدها، وإخوتها، طيب إذا أهلها ضدها، كيف بدها توقف بوحدها، هي بتصير منبوذة من المجتمع، فاللّي بصير انتقام، أما على السكت، بتشتري فساتين وبقدرش يقول لها لأ، هون الناس بتصير تقول معوش يلبِّس زوجته، يعني بتعيش الواحدة معه بتربّي أولاده وبتدير البيت، من طبيخ، من تنظيف، كله عليها، هذا غير الشغل برية البيت، وهو قاعد لا شغلة ولا عملة. يعني في مرة أجت واحدة دكتورة بعلم النفس عملتلنا محاضرة، وحكينا عن هذا الموضوع، لكن حتى هذه الدكتورة مكانتش تفهم انه الإنسان اذا مكانش مربّى على احترام النفس، من سن صغيرة، معندوش القدرة انه يقول أنا! طيب هذه الست اللي بدها توقف وتقول لأ، هي مهانة كل يوم قدام أولادها، قدام أخوتها، من أبوها، طيب كيف إحنا منطلب مش منها وبس، وكمان من أولادها، انه ينجحوا إذا هم مهانين بأمهم، مهما تعلّمت ؟ كل العلم، بدها الإنسانة أهلها بالأول يعترفوا فيها، وبعدين ممكن توقف وتقول لأ. .».

زوجة الابن تستفسر عن الدكتورة المتحدث عنها ثم تقول: «آه سمعت عنها، هي صحيح بتفهم ومتعلمة كثير، هذه درست في أميركا، وجاي تطبق اللّي ما بِتْطَبّق. وبعدين كثير قاسية، بدها كل الناس تصير مثلها، طيب انت وصلتي، مش كل إنسان عنده إمكانية يوصل، في عنّا هون مصاري، في أهل بمنعوا، ومش كل إنسان مستعد يدفع أو بقدر يدفع الثمن حتى لو بدّو، أكثر

أشي بِضَحِّك إذا منقول لها هيك، بتزعل.» . . .

٨

قاد وصفي سيارته، ولحق به رجا الذي لا يعرف الطريق للخروج من بيت إكليل، ثم إلى كفر ياسيف حتى الطريق الرئيسي، عبر وصفي في وسط قرية أبو سنان التي التحمت بيوتها بقرية كفر ياسيف، ثم اخترق شوارعَ داخلية في وسط القرية. . . . كانت تراقب نظافة الشوارع بدهشة. فكرت في الحاجّة، ماذا يمكن أن تعلق عندما تسألها عن أسباب نظافة كفر ياسيف؟ مقارنة ببلدها التي تحيط بها الجيف، مع أن قريتها تحولت اسميا إلى مدينة، ستغضب حتماً، وستعزو ذلك إلى كثرة الأعراس. أو ذلك يعود إلى أن غالبية كفر ياسيف هم من المسيحيين.

وصل وصفي إلى حوش يتوسط عدداً من البيوت المكونة من طابق واحد، ثم ترجل وأصر أن تنزل. . . هي ورجا لشرب القهوة، وأن يتعرفوا على العائلة.

وفي لحظات قلائل وصلت زوجة رايق، والوالد الذي جاء وعلى محياه ابتسامة طفل. رآها تنظر إلى السيارة الفضية التي وقفت على يمين الساحة، فقال لها فرحاً: «هذه سيارة صوفيا لورين، اشتريت هذه السيارة في الخمسينات، كانت وما زالت أجمل سيارة في البلاد، لما صوّروا فيلم مع صوفيا لورين، اختاروا سيارتي، وأنا كنت السائق لأنه بخليش حدا يركبها، فكان دوري هو: لازم أمر بصوفيا لورين، وهي على الشارع، أوقف لقدامها شوي بعدين أكمل، فأنا مرديتش على المخرج، فوقفت السيارة وفتحت لها الباب، بصيرش ما أركبها؟! هذه صوفيا لورين يا عمي». انفجر الجميع بالضحك، ثم انطلق في تعديد المحاسن الأخرى للسيارة: «هذه علّمت الأولاد، وبنت بيوت، هذه مباركة، هذه أم الخير لا يمكن أن تباع».

. . . التفتت إلى رايق الذي كان يسأل رجا وكأنه في امتحان: «كم حرفا تعد بسم الله الرحمن الرحيم ؟«يجيب رايق بعدما تأكد من عدم قدرة رجا على الإجابة: «تسعة عشر حرفاً، ثم استطرد. . وآية الكرسي مكونة من خمسين كلمة ومائة وسبعين حرفاً، وسبع فواصل.» ينظر الأب بإعجاب إلى ابنه، ثم يدخل في مسابقة المعلومات، ويسأل: «ما هي معاني الفاتحة؟» ثم يجيب بنفسه: «معاني الفاتحة موجودة في البسملة، ومعنى البسملة موجود في الباء، ومعناها بي كان وبي يكون ما يكون. «ينتهي من جملته، وينظر إلى ابنيه ويقول، هذا وصفي مبحبش

يحكي كثير، مثل أمه، رايق بحب يعرف وبحب يحكي، ثم ينظر إلى رجا ويقول: «لازم الواحد يقرأ ويعرف، صحيح ؟».

رجا يقول له: «لكن هذه المعلومات للمتخصصين، وإذا لم نعرفها لن ينقصنا شيء. «يقول الأب: «كيف ؟ يمكن يسأله الإنسان عن معلومه، آه. . ؟ شو يقله بعرفش؟ لازم الواحد يعرف بكل أشي، لكان هذول الأمريكان والإسرائيلية كيف حاكمين العالم، بالمعلومة، والخبث، طيب شوف مثلاً وين بن لادن ؟. . عند الأمريكان. وين صدام ؟ عند الأمريكان. يعني فاكر انت انه في محاكمة لصدام ؟ لأ، لأنه محاكمته ضدهم، كيف بتحاكم بني آدم دون دستور؟ مين بحط الدستور؟ الحكومة. أين الحكومة؟ هذه حكومة ؟ هذه مش حكومة. دير بالك أميركا بتتعلم من إسرائيل، مش العكس. . .

نظرت إلى السماء التي التحفت لوناً أزرقَ داكناً، أضاءت النجوم بعضاً منه، استرقت النظر إلى سيارة صوفيا لورين التي وقفت وكأنها في انتظار نجمة ستنزل على سلم ناري البريق.

وجاء صوت أفرام هامساً في ذهنها قائلا: «الحرب على العراق أحبطت المجتمع العربي برمته، عرب إسرائيل، والعرب في مصر، وفي المغرب، وفي الجزائر، وسوريا، جميعهم أحبطوا، فقدوا الإيمان بكل شيء ! هذا الرقص الذي ترينه في الأعراس، هو عرس أو قنبلة، سيتحول إلى جنازة جماعية، لا تعتقدي أنهم فرحون عندما يشاركون في الأعراس، إنهم يتأففون مبتسمين، إنهم يتآكلون من الداخل، إنهم يذهبون إلى العرس كما يذهبون إلى الجنازة، يعودون إلى بيوتهم مع أجساد منهكة مكدودة، ان الذي يقول بأن هؤلاء لا يبالون بما يحدث وراء الخط الأخضر أو بما يحدث في أي مكان آخر، هو إنسان جاهل بآلام هؤلاء، والجاهل هو ظالم، والظالم موجود في مكان آمن، دون آلام، إن هؤلاء يشعرون بالمسؤولية، ويشعرون بالفشل الجماعي، إن عرب إسرائيل ظلموا تاريخياً أكثر من مرة، وأهملوا مرّات.

٩

. . . ما زالت الساعة السادسة، و ما زال الليل مستكيناً بزرقته الداكنة، نظرت نحو الأفق ورأت لوناً زهرياً يزحف نحو الليل، معلنا عن يوم يحمل القيظ، سرعت من خطاها نحو الجنوب، لتسبق خيوط الشمس، لحق بها حمودة رفيقها في رياضة المشي، مرّاً أمام بيت موسى الذي يجلس في

ذات المكان في كل صباح، ولكن كان مقعده خالياً في هذه الساعة المبكرة من الصباح. نظرت إلى المقعد الذي بدا وحيداً دون صاحبه، واقترحت على حمودي أن يخبئا الكرسي، بعد تردد قليل.. نفذ حمودي الفكرة وهو مسرور، لأن فقدان المقعد والبحث عنه سيكون جزءاً من حكايات جلسة العصر أمام بيت فوزي، هذا ناهيك عن صاحب المقعد، ودهشته للحدث الذي سيغير من روتين سنوات بدأت صباحات أيامها على هذا المقعد مع فنجان قهوة، والنظر إلى المارة أمام البيت.

... كان رنين ضحكاتهما لتخيلهما موسى يبحث عن مقعده، يشق السكون النادر في البلد. وربما طالت ساعات الهدوء بسبب عطلة يوم السبت، الذي كان موعداً لدزينة من الأعراس، التي تسابق أصحابها في الانتهاء من تنظيمها قبل قدوم فصل الشتاء، الذي خصص للإخصاب. ابتسمت ابتسامة عريضة، عندما انتبهت أن الموعد الوحيد الذي تحرص هذه البلد على الوفاء به، هو موعد العرس، أو الجنازة، وما عدا ذلك فهو مرتبط بالتخمينات، ومرتبط بمواقيت مساحتها ساعات، ولم تسمع أحدهم يقول: لقاؤنا في الساعة الرابعة أو الخامسة، وإنما بعد الظهر، أو قبل العشاء. حتى المحامي الذي ضربت معه موعداً في الساعة السادسة مساء في مكتبه، اضطرت أن تذهب إلى بيته، وتنتظر حتى يستيقظ، ثم يلملم أشياءه متذمراً منها، ومن طريقتها، ثم يتمتم ويقول مفكري حالها كأنها في أوروبا!

... سارت بهمة بحذاء محمد حتى (أرض الفول)، التي جاورت (أرض عباس)، التي اصطفت فيها أشجار زيتون متشابهة في الحجم وفي اللون، وامتدت الأشجار حتى تلة ربضت على قمتها مستوطنة تراقبها من على تلة، مستوطنة غرقت في سكون يوم السبت. تناول محمد منشفة من على وسطه، نشف شعره الذي تبلل من العرق، وقال:

«هذه المستوطنة بنوها على أرض مشاع ما عدا قطعتي أرض، أحدهم باع، أو بادل قطعته بقطعة أخرى، لكن الثاني رفض البيع رغم جميع المغريات التي عرضتها الحكومة عليه، صاحب هذه الأرض عنيد، ولا يمكن يبيع أرضه لليهود، ولم يهمل العناية بأرضه، بروح في نص المستوطنة بحرثها بزرعها وهم عينيهم بتتطلّع».

سارا بصمت، وكان صوت خطواتهم على التراب هو الشيء الوحيد المسموع، وبقيا ملازمين الصمت، حتى دخلا القرية من أطرافها، مرّا بزوجين جلسا في ساحة البيت يرتشفان القهوة، رفع حمودة صوته بتحية الصباح. فسأله الرجل: «لوين ؟» قال حمودي: «عند هيام». دعا الرجل إلى

شرب القهوة وقال: «هيام وزوجها وأولادها نايمين، كان الليلة عندهم عرس، بعد يوم شغل، اتركهم يناموا وتعال اشرب قهوة».

دخلا إلى ساحة نظيفة، انتشرت فيها أصص الورود، وفاح عطر الياسمين من مكان ما. . . وضعت على الطاولة كوز رمان كانت قد اقتطفته من شجرة رمان قريبة من الحي، جففت عرقها، وتناولت فنجان القهوة من سيدة بدت في الخمسينات من عمرها، رقيقة العود، رغم الابتسامة التي رسمتها على محياها إلا أن التعب يبدو عليها عندما اقتربت وبيدها كأس ماء بارد. سأل حمودة إذا كانت المياه ملوثة، فنظر الرجل إليه مستفسراً، فقال حمودة: «يا رجل عنّا في البلد المي ملوثة، والتجار غلُّو سعر الزجاجة ثلاث أضعاف، صار سعر المي بسعر اللحمة والسمك. «قال الرجل بحزن: «ما تجيب سيرة السمك يا حمودي، والله اشتريت ثلاجة لحفظ شحنة سمك، وخربت الثلاجة، وخرب بيتي بخرابها، ستة آلاف شيكل اشتريت سمك، كلُّه راح، قلنا هذه فرجت، وقبل ما نسمي بسم الله، راح كل شي، الدولة خربانه يا حمودي، هذا قديش صار لي قاعد عن الشغل؟ تركنا الخيار بعد ما تركوه الفلاحين بأرضه! بسواش تعبه".

عادت السيدة بمزيد من القهوة والكعك وقالت مؤيدة: «حكومة مكسورة، طيب صار سنة ما شفت عمار بالبلد، الناس لمّا تبني معناه في فلوس بالبلد، لما بوقف العمار معناها فش، الناس عايشه على التأمين الوطني، وشو التأمين الوطني ؟ ما انت عارف، فوق الذل والنّطرة بالدور، بعطوك قروش! هذا بقيم عمار؟ هذا معناه في دمار للعمار. "

سأل حمودي عن أخبار المجلس المحلي، فقال الرجل: "سقط الرئيس، وعينت الحكومة الأعضاء، اثنين يهود واثنين من القرية، وبيني وبينك، هذا الوضع أفضل للبلد، يا رجل مليون شيكل راحوا ضيافة! ليه؟ بسجلوا ضيافة، وبحطّوها بجيابهم، والرئيس عنده مطعم، بدعي فلان وعلان وبسجل ضيافة، هذا بنى مزرعة بتخوف من وين؟ هو راكب مرسيدس وزوجته راكبه مرسيدس، من وين؟ إحنا منستاهل، منستاهل يحكمونا يهود". تحدث الرجل بصوت منهك ونفس مقهورة، تنفس بعمق وأشعل سيجارة وأخذ منها أنفاسا عميقة صامتاً. . .

انتقل القهر إليها، وأشعلت سيجارة، وملأت رئتيها بدخانها، نظرت إلى السماء الزرقاء التي أضيئت بشمس واعدة بحرارة ستحرق أي نسيم قد يتسلل من ناحية البحر. ثم حولت نظرها إلى حمودي الذي قال بشيء من ذات القهر: «عنّا في البلدية في عجز بثمانين مليون شيكل، العمال ما

استلموا رواتبهم من سبعة أشهر، لأنه رئيسنا السابق شغل مائتي عامل فوق طاقة الميزانية، لكسب الأصوات. «سأل الرجل: «وكيف عامل الرئيس الجديد يا حمودي عندكم في البلد؟«حمودي بابتسامة: «رئيسنا ما زال جديد صار له قريب السنة، وهو جديد، تنشوف لما يصير قديم شو بدو يصير؟ بلدنا مزبلة كبيرة، برموا الجيف على الطريق، بشموها وهم ماشيين، بشفوها وهم قاعدين يشربوا قهوة، بيمر الصيف، وبعده الشتاء، والجيف بتتحول عظم، ولا واحد عينه بترف أو يتحرّك». قال الرجل: «العرب بقتلوا أنفسهم بأنفسهم بدون مساعدة أحد».

. . . تجهم وجهها بسبب الحديث الذي أعاد إلى مخيلتها مناظر الجيف، التي ارتبطت صورتها مع مسؤول البيئة، حاولت جاهدة إبعاد تلك الصورة المؤذية، وبحثت في رأسها عن صورة جميلة، لتتسلى بها، فكرت بيوسي الذي يعمل كمفتش في وزارة التربية، أتاها صوته وهو يقول: أنا أحب الدروز أكثر من المسلمين، لأنهم رجال. ثم تسمع صوت زكريا الحردان يرد عليه، هم الدروز شو هم؟ هم مسلمين. . . ثم يأتيها صوت امرأة درزية من المغار، تقول لها بعد أن حاولت جاهدة بيعها ملابس داخلية: المسيحية بشتروا هذه الموديلات، لأنهم بفهموا فيها. . . ثم رأت راضي شحادة وزوجته منيرة اللذين ما زالا يفنيان عمرهما في المسرح، . . . أضاء وجهها بابتسامة، عندما ناولتها منيرة بضعة أرغفة من طحين القمح الصافي، صنعتها بيدها، رأت نفسها تمسك بالأرغفة النادرة في هذه البلاد، التي تأكل خبزاً بطعم تبن مطاطي المضغ، مهما علكته فهو يبقى في الفم كتلة واحدة، ومن اليأس يزدرده المرء على مضض، ثم تعود صورة راضي الذي حمّلها بكومة كتب كتبها في العشرين عاما التي لم تره فيها. وتنتصب أمامها فقرة كانت قد قرأتها في كتابه ــ مسرح وحرامية ــ(كان هزاّز فواّز الغماّز وهو أحد شخوص مسرحية هيصة، يقول إن كلمة «فلامنكو» أوجدها الأسبان لتأثرهم باللغة العربية عندما حكم المسلمون الأندلس، وخلال سهراتهم كان العرب يطربون ويبدون إعجابهم بالرقص والفنانين ويقولون لهم: «فلا حرمنا منكو» وهذه الكلمة فهمها الأسبان«فلامنكو». وبما أن قائلها «هزاّز فواّز الغماّز» شخصية مهزوز وقالها في سياق تخبيصاته، ظنّها الجمهور نكتة، وليست حقيقة، فضحكوا على هزاّز وعلى ادعائه بأن للعرب فضلاً على الأسبان، ويتغامزون في ما بينهم ويقولون: أيعقل أن يكون للعرب فضل على أحد وحالتهم يرثى لها؟). . .

كان العرق يتساقط بغزارة من على جبهتها ورقبتها. . . وأتاها صوت سهيل عاتباً على ما آل

إليه الناس داخل الخط الأخضر . . ثم علا صوت ليانا الحاد يقول : أين هم؟ إنهم غير موجودين في المكان، لا هون ولا هون . . . اختفى طيف ليانة . . . واتاها صوت أنغريد ساخراً : يكفي أن يمتلك المرء أكثر قليلاً من الآخر، حتى يرغب في سلب ما يمتلكه هذا الآخر، أو يكفي لأن ينظر إليه بدونية . . . وسمعت حسنين هيكل يقول : فرطنا في القضية الفلسطينية، وفرطنا في مسيحية الشرق، وعجزنا عن احترام التنوع، السودانيون سيخسرون بلادهم لهذا السبب، والعراقيون خسروا بلادهم لهذا السبب . . .

بدت شاحبة، واجمة . . . تدافعت الأفكار في رأسها . . . وضعت وجهها في كفيها، تنصت في ذاكرتها إلى صوت جاء من أعماق العصور . . يذكرها بصفحة من تاريخ مضيء . . آنذاك كانت أوروبا غارقة في جهالة العصور الوسطى، وعاد الصوت يناجيها، ويهمس لها بحديث هو حديث الروح، انظري إلى عجلة التاريخ كيف تدور، وكيف توزع الأدوار بالتناوب . . وكيف تفنى الحضارات . . ترى هل كانت أوروبا هي المسؤولة عما آل إليه حالها في عصر الظلمات؟

ترى هل تُفنى الحضارات بفعل الإنسان وحده؟ وهل من الحتمي أن يؤدي صراع الحضارات إلى قيام حضارة واندثار أخرى؟ أم أن الإنسان قادر على تحويل هذا الصراع إلى حوار يمهد لبزوغ عصر حضاري جديد تلتقي فيه المصالح، و تتناغم فيه الأفكار، انطلاقاً من الوعي بالمصير المشترك؟